آليات تأويل الخطاب الصوفي
مطلع تائية الحراق نموذجا

مولاي علي سليماني

أستاذ مؤهل، قسم اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المغرب

ملخص

نسعى من خلال هذا البحث إلى بيان آليات التأويل المعتمدة في تأويل الخطاب الصوفي، مركزين على تائية الحراق، وهي إحدى القصائد المشهورة في التصوف، لصاحبها الفقيه الصوفي المغربي محمد بن محمد العلمي الشاذلي الدرقاوي المشهور بالحراق (ت1261هـ) الذي يعد بحق من أبرز أعلام الفكر الصوفي بالمغرب، خاصة المدرسة الصوفية الشاذلية. وحسبنا في هذا العمل الاشتغال على السفر الشارح للتائية لصاحبه محمد المهدي بن القاضي (ت1271هـ) والموسوم ب (مجلي الآماق وإثمد الأحداق في شرح تائية الحراق).

تبعا لما سبق سيتضمن بحثنا، فضلا عن المقدمة والخاتمة، محورين:

المحور الأول؛ نعرف فيه بالتائية، وبمكانتها في الشعر الصوفي، وكذا بصاحبها وشارحها.

المحور الثاني؛ وهو الأهم، سنبرز في شقه الأول منهج الشارح محمد بن المهدي بن القاضي، وفي شقه الثاني سنبين كيفية اشتغال الآليات التأويلية في المطلع، وبيان الجسور القائمة بين المهيمنات النصية ومعززاتها من جهة، وبينها وبين الموازيات الخارجية من جهة ثانية.

الكلمات المفتاحية: التأويل، الخطاب الصوفي، ابن القاضي، الحراق– التائية

Abstact

We strive to lay bare through this research to clarify the mechanisms using in interpretation of sufidiscourse, which is written by one of the famous poems in Sufism, especially the Sufi school of Chadiliya In Morocco, named Al-Harraq (d. 1261 AH). And we based our research on the explanatory book for its explainer, Muhammad al-Mahdi ibn al-Qadi (d.1271 AH), which is titled by (Mujli al-AmaqwaIthmid al-Ahdaq fi charhTa-iyat al-Haraq .(According to the above, our research will include, in addition to the introduction and conclusion, two axes :The first axis is in which we identify the tai-yah, and clarify its value in Sufi poetry, as well as its owner and explainer .The second axis, which is the most important, we will highlight in the first part how the explainer Muhammad ibn al-Mahdi ibn al-Qadi approached the beginning of the text, by showing how the interpretation's mechanisms effectuate in it, by removing the veils to clarify the meanings of the ta-iya. We will also work in the second part to show relations that exist between domination's textual and their reinforces on the one hand, and between them and the external parallels on the other hand.

:Keywords

Al-Harraq -sufidiscourse- ibn al-Qadi- ta-iya- interpretation's mechanisms

مقدمة:

نسعى من خلال هذا البحث إلى بيان آليات التأويل المعتمدة في تأويل الخطاب الصوفي، مركزين على تائية الحراق، وهي إحدى القصائد المشهورة في التصوف، لصاحبها الفقيه الصوفي المغربي محمد بن محمد العلمي الشاذلي الدرقاوي المشهور بالحراق (ت 1261هـ) الذي يعد بحق من أبرز أعلام الفكر الصوفي بالمغرب، خاصة المدرسة الصوفية الشاذلية. وحسبنا في هذا العمل الاشتغال على السِفر الشارح للتائية لصاحبه محمد المهدي بن القاضي (1271هـ) والموسوم ب **(مُجلي الآماق وإثمد الأحداق في شرح تائية الحراق).**

تبعا لما سبق سيتضمن بحثنا، فضلا عن المقدمة والخاتمة، محورين:

المحور الأول؛ نعرف فيه بالتائية، وبمكانتها في الشعر الصوفي، وكذا بصاحبها وشارحها.

المحور الثاني؛ وهو الأهم، سنبرز في شقه الأول كيفية مقاربة الشارح محمد بن المهدي بن

القاضي لمطلع النص الصوفي، من خلال بيان كيفية اشتغال الآليات التأويلية فيه، من خلال رفع الحجب الثاوية لبيان معاني التائية. كما سنشتغل في الشق الثاني على بيان الجسور القائمة بين المهيمنات النصية ومعززاتها من جهة، وبينها وبين الموازيات الخارجية من جهة ثانية.

1. إضاءات حول التائية ومكانتها في الشعر الصوفي، وصاحبها وشارحها

1-1. إضاءات حول التائية ومكانتها في الشعر الصوفي

لم تتبوأ التائية مكانتها المرموقة في خريطة الشعر الصوفي، إلا من خلال ما اشتملت عليه من شرف الغرض وجلالة العروض، لذا سنبين مكانتها من خلال نقطتين اثنتين:

1-1-1. شرف الغرض

لم يقتصر التصوف على جانب ظاهري يخص المتصوف في علاقته بالذات وبالآخر، إذ إنه منهج في التربية والسلوك يسلكه المتصوف ليرتقي في مدارج السالكين إلى الله سبحانه، إنه كما قال اليوسي –رحمه الله–: «العمل لله بما يرضى من حيث يرضى» (اليوسي/ 81)، أو كما قال عطاء الله السكندري في معرض حديثه عن الذكر باعتباره ممارسة يومية لتزكية المتصوف: «الذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحق، وقيل ترديد اسم الله بالقلب واللسان، أو ترديد صفة من صفاته، أو حكم من أحكامه، أو فعل من أفعاله، أو غير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى» (عبد القادر عيسى/97). لأجل ما ذكر كان الغرض الأسمى من التصوف تطهير النفس مما يدنسها والارتقاء بها إلى حيث الصفاء والنقاء، إقبالا على المقدس ودرءا للمدنس، أو تحلية بعد التخلية، ليظهر أثر الممارسة الصوفية من خلال التجلية.

ونظرا لأهمية التصوف في تقويم العادات، وتزكية العبادات، لما تقوم عليه الممارسة الصوفية من توجيه وتربية، فقد انتشر التصوف في المغرب، ورفع رايته أعلام من العلماء العالمين، و"الفقراء

السالكين إلى الله، وكثرت الطرق الصوفية، كالطريقة الشاذلية التي كان لها فضل كبير على أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي (1102هـ) صاحب الدالية في مدح شيخه محمد بن ناصر الدرعي، وقد خصها بشرح سمّاه "**نيل الأماني في شرح التهاني**" وقد «ألفه في شرح قصيدته الدالية، وذكر أن الطريقة الشاذلية متصلة السند بسلسلتين، سلسلة العلماء وسلسلة الأقطاب» (اليوسي/ 81)، ومن الطرق أيضا نذكر الطريقة التيجانية التي أسسها الشيخ أحمد التيجاني (1228هـ)، وهي طريقة قائمة كذلك على «تعاليم السنة، وأوراد الشيخ المؤسس"(حركات3/ 562)، والطريقة الدرقاوية المبنية "على اتباع السنة في الأقوال والأفعال والعبادات والعادات، ومجانبة البدع كلها في جميع الحالات، مع كسر النفس، وإسقاط التدبير والاختيار، والتبري من الدعوى والاقتدار» (الكتاني1/ 177). ونظرا لما قامت عليه الطريقة من تصوف سني سَني، فقد لقيت قبولا واستحسانا في نفسَي محمد الحراق صاحب التائية وشارحها محمد المهدي بن القاضي، ولقد كان لتعدد الطرق الصوفية بالمغرب أثر مباشر على الإبداع الصوفي، فتعددت الرسائل والتقاييد، فضلا عن المتون والقصائد من قبيل شرح الشيخ ابن عجيبة التطواني (1224هـ) للصلاة المشيشية، وشرح محمد المهدي بن القاضي لتائية الحراق.

1-1-2. جلالة العروض

سنتوقف في هذا المطلب تحديدا عند الجانب العروضي الذي انسكبت فيه تلك المعاني الصوفية الرائقة وما حواه من الإشارات الرائقة. إنّ تائية الشيخ الحراق تعد «من أبرز قصائد ديوانه وأطولها، تقع في ثلاثة وخمسين ومائة بيت، احتذى فيها حذو المتصوفة في انتقائه للقافية المكسورة، وفي اختياره لبحر الطويل» (ابن القاضي 1/ 136).

ولعل من دواعي اختيار بحر الطويل ما ذكره عبد الله الطيب في المرشد حين قال: «وحقيقة الطويل أنه بحر الجلالة والنبالة والجد، ولو قلنا إنه بحر العمق لاستغنينا بهذه الكلمة عن غيرها» (1/

381). ولأمر ما كان الطويل أشرف البحور وأجلها شأنا، ولعل هذا الشرف راجع لأمور أجملها في التالي:

1. فقد جمع من الأجزاء العروضية أشرفها، فضم إلى جانب الخماسي (فعولن) الراجح بخفته، السباعي (مفاعيلن) الراجح بقوته لاعتماد الجزأين المذكورين الوتد المجموع والسبب الخفيف.

2. يضاف إلى ذلك أصالة الجزأين اللذين تركب منهما، وعلى أساس ذلك حاز الطويل شرف الانتماء لأولى الدوائر العروضية، وشرف التقدم في ترتيب بحور الدائرة الأولى التي حازت هي كذلك، السبق على باقي الدوائر العروضية «وإذا تحققت ذلك فنقول: تعين النقصان للفرع يستتبع تعين الأصالة للكمال، وللأصل حق التقدم على الفرع، فبحكم هذه الاعتبارات ناسب في هذا النوع تقديم الأكمل فالأكمل، فروعيت تلك المناسبة، فلزم تقديم الدائرة المختلفة على ما سواها؛ لكون بحورها أتم بحور عدد حروف، لاشتمال كل بحر منها على ثمانية وأربعين حرفا. ولزم تأخير الدائرة المنفردة عن الكل؛ لكون بحرها أنقص البحور عدد حروف، لاشتماله على أربعين حرفا. ولزم توسط الدوائر الثلاث الباقية؛ لاشتمال كل بحر من بحورهن على اثنين وأربعين حرفا. ثم لزم تقديم المؤتلفة منهن على أختيها؛ لكون كل واحد من بحريها أتم من بحور أختيها عدد حركات؛ لاشتمال كل واحد منهما على ثلاثين حركة، واشتمال كل واحد من أولئك على أربع وعشرين. والسكون في هذا النوع معدود في جانب العدم، فلا يوضع في مقابلة الحركة، فاعرفه.

ثم ناسب إيلاء المجتلبة المؤتلفة لمزيد التناسب بينهما في: أن كل واحدة منهما تتم أصل البيت بست دورات، فترتيب الدوائر على ما ترى:

المختلفة ثم المؤتلفة ثم المجتلبة ثم المشتبهة ثم المنفردة» (السكاكي/ 564).

وقد أكد الدماميني شرف الطويل بكونه أولا في أولى الدوائر، يقول: «إنما قدمت دائرة المختلف لاشتمالها على الطويل والبسيط اللذين هما أشرف من سائر البحور لطولهما، وحسن ذوقهما، وكثرة ورودهما في أشعار العرب، وقد قال أبو العلاء المعري في كتابه جامع الأوزان: أن أكثر أشعار العرب من الطويل والبسيط والكامل، ومن تصفح أشعارهم وقف على صحة ذلك، وأيضا فكل بحور هذه الدائرة مثمن، والتثمين أشرف من التسديس» (الدماميني/ 63).

3. ومن ذلك استحسان العروضيين لما يدخله من الزحاف، إذ جعلوه علامة حسن فيه، «ومن الزحاف ما هو أخف من التمام وأحسن، كالذي يستحسن في الجارية من التفاف البدن واعتدال القامة، مثال ذلك مفاعيلن في عروض الطويل التام تصير مفاعلن في جميع أبياته، وهذا هو القبض، وكل ما ذهب خامسه الساكن فهو مقبوض» (ابن رشيق 1/ 138).

4. أغلب ما يرد في مزاحفة الطويل حسن أو صالح، وقلما يكون قبيحا إلا ما كان من حذف سابعه الساكن كما هو مؤكد في العيون الغامزة حين تكلم الدماميني عن مزاحفة أجزاء الطويل قائلا: «فتارة يكون حسنا، وتارة يكون صالحا، وتارة يكون قبيحا، فالحسن ما كثر استعماله، وتساوى عند ذوي الطبع السليم نقصان النظم به وكماله، كقبض (فعولن) في الطويل. والقبيح ما قل استعماله وشق على الطباع السليمة احتماله، كالكف في الطويل. والصالح ما توسط بين الحالين ولم يلتحق بأحد النوعين، كالقبض في سباعي الطويل» (الدماميني/ 86).

1-2. إضاءات حول صاحب التائية وشارحها

1-2-1. إضاءات حول صاحب التائية

يعد الشيخ محمد الحراق من أعلام التصوف ورجاله في المغرب، اختلف في تاريخ مولده بين

(1168هـ) و(1186هـ)، بمدينة شفشاون المغربية، كما أكد ذلك صاحب النور البراق في رد من قال بأن الحراق فاسي الأصل: «إذ لم يقل أحد إن أصل سيدي محمد من فاس، وإنما هو كباقي الأشراف العلميين الذين أصلهم من الجبال الشمالية بالمغرب» (الرباطي/7)، والدليل على أنه ليس منها، هجرته إليها صحبة والديه طلبا للاستزادة من العلوم، لما اشتهرت به مدينة فاس باعتبارها عاصمة العلم في المملكة، يقصدها العلماء والمتعلمون رجالا وعلى كل ضامر، من كل فج عميق، ويجعلونها وجهتهم ومأمهم. ويظهر جليا أن الحراق قد تحقق له القصد من الرحلة، إذ تضلع من العلوم، وارتوى من حياضها، يشهد على ذلك ما وصفه به المؤرخ محمد بن داود قائلا: «سيدي محمد الحراق أحد الرجال الذين لا تفتخر بهم مدن شفشاون وفاس وتطوان فحسب، بل يحق للمغرب كله أن يفخر به، لأنه رحمه الله كان بحرا زاخرا في العلم، وجبلا راسخا في المعرفة، وكان إماما في ثلاثة علوم، قلما اجتمعت في رجل واحد في الشرق والغرب، علوم الشريعة وعلم الأدب وعلم التصوف» (داود/5).

قد وردت ترجمته في مصادر عدة، أذكر منها الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية والحسينية لإدريس الفاضلي، وسلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس عمن أقبر من العلماء والصلحاء من أهل فاس لمحمد الكتاني، وإتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع لعبد السلام بن سودة، والأعلام للزركلي، والنور البراق في ترجمة محمد الحراق، ومختصر تاريخ تطوان لمحمد داود، والنبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون، والأدب المغربي لمحمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي، والمطرب في مشاهير أولياء المغرب لعبد الله التليدي (ابن القاضي/ 57)، وغيرها من المصادر والتراجم التي احتفت بهذا الشاعر العالم.

1-2-2. إضاءات حول شارح التائية ومناسبتها

استحسنت في إضاءة حياة الشارح وبيان طريقته، وذكر اسمه ولقبه، أن اعتمد ما قاله هو في

ترجمة نفسه، قبل شروعه في كشف حجاب التائية، إذ لن يعرِّفه مترجم بمثل ما ترجم به لنفسه، فقال رحمه الله: «وبعد، فيقول الفقير، الذليل الحقير، أبو عبد الله محمد المهدي بن محمد التاودي بن أحمد بن القاضي لقبا، العباسي نسبا، الصوفي حقيقة، قد كنت معتكفا في مسجد بناحية جامع الأندلس بفاس، دفع الله عنها كل باس، سنة ست وخمسين ومائتين وألف، وأنا مشتغل بعمارة الأوقات، فاشتغل فكري ذات يوم، وهو يوم الأحد سابع عشر شوال في السنة المذكورة، بتائية الشيخ الإمام، الحبر الهمام، العالم العلامة، المشارك الفهامة، العارف بالله، الكامل المحقق المدقق، الواصل الشريف الحسني» (ابن القاضي1/ 239–240).

1-2-3. مناسبة التائية

تعد الشروح حياضا معرفية تلتقي فيها العلوم، وتجمع في أعطافها تنوع القراءات وتعدد الفهوم، فغالبا يكون الشارح ملما بما كتب السابقون، فيأتي في شرحه بإضافات غفل عنها الأوائل، وبحكم تأخره فإنه يستفيد من جهود الشراح المتقدمين، فيكون شرحه جامعا لما تفرق في غيره من الشروح، لذلك فإنها تكون «غنية من حيث المعارف الدينية والمعلومات التاريخية، والفوائد النحوية والبلاغية، وهي بذلك تكتسي صبغة تعليمية» (الجراري/ 152)، والقارئ للشروح يدرك بغير عناء أن عمل الشارح يكون في الغالب استجابة لرغبة طلابه، كما هو الأمر في تأليف المسلك السهل في توشيح ابن سهل «إذ لم يسارع الإفراني إلى الشرح رغبة، بل دفع دفعا في مضايق الشعر، إلا أنه وبحكم تواضع العلماء اعتذر وحذر، فلما كان من الطلاب الإصرار، شرع في رفع الطوق وجني الثمار، فكان المسلك السهل» (سليماني/ 204)، يؤكد هذا قول الإفراني نفسه: «طلب مني بعض من اتخذ ترداده وردا، وارتوى من زلال معانيه المترقرقة، على صفا ألفاظه وردا، أن أكتب عليه ما يوضح غامض معانيه، ويأخذ بمجامع قلب مُعانيه، ويسفر عن وجوه لطائفه مسدل الحجاب، ويدير على حفاظه من سلافة كؤوس الإعجاب» (الإفراني/

.(54

والأمر نفسه في شرح البردة، حيث لم يؤلف ابن مرزوق التلمساني الحفيد كتابه الموسوم بـ" إظهار صدق المودة في شرح البردة" إلا بعد استيفاء الحديث عن مسائل البيان والإعراب، «كما يبدو ذلك واضحا من عنوان كتابه الموسوم ب "الاستيعاب لما في البردة من البيان والإعراب"، وهو المسمى اختصارا الشرح الأصغر» (سليماني/ 227).

أما التائية فلشرحها مناسبة مخصوصة ذكرها الشارح بن القاضي في تصدير شرحه، يقول: «فقيدت ما يسر الله في البيت الأول منها من المعاني، من غير تعرض للألفاظ، ثم أتيت به شيخنا وعمدتنا ووسيلتنا إلى ربنا، صاحب العلوم اللدنية، والمواهب الذوقية، والمشاهدات القلبية، والمعارف الربانية، والأسرار الإلهية، فرد زمانه، وشمس أقرانه..أبا الفيض، وأبا المواهب، الشريف الحسني، سيدنا ومولانا عبد الواحد الدباغ، فسر شيخنا بذلك التقييد سرورا كبيرا، وفرح به فرحا كثيرا، وأخذ يحمد الله ويشكره، ويثني عليه بما هو أهله، ثم قال لي: يا ولدي إن القوم لا يسمون الفقير فقيرا، حتى يولد لهم في بلاد المعاني، وعند الولادة ينبغي الفرح والسرور...ثم أمرني بشرح التائية المذكورة، وقال لي إنها من أجل ما نظم في التحقيق، ومن أعجب ما صنف في بيان شور الطريق، عليك بها مع التأني، إذ من تأن صاب أو كاد أن يصيب معانيها، والتوسع في أسرارها، وتفصيل بعض جملها بحسب الإصلاح مما لابد منه، ولا تتبع السبل إلا لضرورة، فاتهمت نفسي حينئذ واعترفت بالعجز والتقصير وامتنعت من ذلك ، لقلة علمي وفهمي وصغر سني وجرمي، إذ كنت ولد بضع وعشرين سنة، ما بلغت مبلغ الرجال، وما وصلت في نظري ما وصل إليه أهل الكمال» (ابن القاضي 1/ 240-241).

يستفاد من الشاهد أعلاه أن الشارح لم يكن له القصد في شرح التائية برمتها، بل حسبه منها ذلك

البيت اليتيم، الذي أظهر معناه، من غير غوص في دلالات الألفاظ ، وما يقتضيه ذلك من توسع، ثم عرضه بعد ذلك على شيخه عبد الواحد الدباغ، وللشيخ سُلطة على المريد، فلما أطلع المريد الشيخَ على التقييد، ابتهج به الابتهاج الفريد، فما كان منه إلا الأمر بإكمال الشرح، فقذف في قلبه من الحفز ما يخف به الى الطاعة، إلا أن ابن القاضي ، كعادة العلماء، تمهل في ارتياد التائية آونة، واتهم نفسه بالتقصير، لأنه لم يبلغ مبلغ الرجال، إلا أن الشيخ أصر عليه بالشرح إصرارا، كما يظهر ذلك من قول ابن القاضي: "ثم ألح علي ثانيا وقال لي: سمعت شيخنا وعمدتنا شيخ المشايخ...الشريف الحسني ، سيدنا ومولانا العربي الدرقاوي رضي الله عنه يقول: قد أمرني أستاذي الشيخ الجليل، الشريف الأصيل، ولي الله تعالى، أبو الحسن سيدي عبد الرحمن الحسني العمراني الملقب بالجمل رضي الله عنه، أن أقيد ما يرد علي من المعاني، وقال لي رضي الله عنه: «مهما وردت عليك معنى من المعاني بادر إلى تقييدها لئلا تفلت لك، إذ هي ترد عليك أولا كبيرة مثل الجبل، فإن بادرت إلى تقييدها، قبضتها كما وردت عليك...وإن بقيت لك جاءتك أخرى وجاءتك أخرى، وبهذا يحصل لك ولغيرك السير، وإلا فلا» (ابن القاضي 1/ 241).

وقد كان من دواعي إصرار الشيخ على الشارح بإكمال الشرح، كون القصيدة جليلة في نظمها من حيث غرضها، وعجيبة في بيان علامات الطريق، ينتفع بها السالك إلى الله في أوعر المسالك.

ليس هذا فحسب، بل إن الشارح مضطر إلى تقييد ما ورد عليه من المعاني، لأنها إن قيدت تواردت على خاطرة غيرها من المعاني، وإن تركت ضاعت، وضاع غيرها، لذلك دعاه الشيخ الدباغ إلى المبادرة بتقييد المعاني الواردة، لتكون سببا لجلب المعاني الشاردة.

وعلى ما كان من الشيخ من الحفز والتهييج ليكون ابن القاضي أبا عذرة التائية، إلا أنه تثاقل

عن شرحها، ولم يحمله على استخفاف ما أثقل عليه غير ذكره لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة :268]، يقول ابن القاضي «فطمعت أن أكون من الذين آتاهم الله الحكمة في حال الصبا فضلا منه ونعمة، فقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم ابن عباس، وهو حديث السن على أكابر الصحابة، ويسأله دونهم» (ابن القاضي 1/ 242)، فراح الشارح يذكر سيلا من العلماء الذين فتح الله عليهم في الصبا، «إذ فضل الله لا ينحصر ومن حصره فهو المحصور" يقول: "فلما علمت ذلك بنعت الإيقان، وتحققت به تحقق العيان، تقدمت لشرح التائية المذكورة، امتثالا لأمر شيخنا، إذ أمره بأمر الله ورسوله، وطاعته طاعة الله ورسوله، حال كوني مستعينا بالله عز وجل، في جميع ما تقدمت إليه» (ابن القاضي 1/ 245).

2. منهج الشارح في شرح مطلع التائية

2-1. منهج الشارح في التائية

إن أول ما نص عليه الشارح، هو عدم خوضه فيما لا يفهم، مع الحرص بأن يكون كلامه في اعتبار العقل مقبولا، ويجد له في المنقول دليلا، ويتخذ له من رأي الأعلام شاهدا، فلا تكلف فيما لم يحط به علما. يقول: «ولا تطلع إلى ما لم نقدر على فهمه، ولم نصرح بما لم تقبله العقول، ولا نفشي غير ما دلت عليه النقول، بل نذكر ما ظهر لي في المسألة، ثم نؤيده بكلام الفحول» (ابن القاضي 1/ 246). أما عندما يتعلق الأمر بمنهجه في قراءة النص فإنه قد سلك مسلك الشراح المتقدمين، مع تأكيده على استحضار معنى اللفظة في اصطلاح أهل التصوف، وذلك أمر مقبول ومشروع؛ لأن القصيدة في التصوف، وشارحها متصوف، فكان من المقبول أن يلتفت إلى اصطلاحات المتصوفة، ويكشف عن الإشارات الصوفية في القصيدة، فضلا عن التفرد بإيراد بعض القواعد المنطقية في شرحه، من زهد بيّن في تعرضه لعلوم اللغة، خاصة الإعراب ، فأما أول ما يقدح به جونة المعاني ويفض ختامها به، هو

شرح الألفاظ كما وردت في لغة العرب، يقول في بيان ذلك: «نشرح اللفظة بحسب ما جاء في لغة العرب أولا، ثم بحسب ما جاء في اصطلاح القوم رضي الله عنهم ثانيا، ثم نشير في بعض الأحيان إلى بعض قواعد البيان، وإلى بعض قواعد المنطق، ولا نتعرض للإعراب إلا لضرورة، ثم نقدر البيت أو البيتين أو الأبيات، بحسب ما تعطيه المعنى، ثم نؤيد ذلك بما جاء في نظم القوم، وبعد ذلك نتنزل لتقرير المعنى الذي احتوى عليه ذلك المحل» (ابن القاضي 1/ 246).

ولم نجد تعليلا لزهد الشارح في الإعراب، على ما له من فضل في كشف المعاني، إذ هو الهادي إلى صوب الصواب، كما قال ابن هشام الأنصاري رحمه الله، إلا شدة ائتماره بأمر شيخه، فهو الذي شطب عليه في المبيضة التي قدمها له، بطلب من الشيخ، يقول الشارح في ذلك: «ولقد وجد في الشرح الإعراب، فضرب عليه وقال لي: لا حاجة لنا به، لأنه معروف عند أهله، فتركته عن إذنه إلا في المحل الذي يحتاج إليه» (ابن القاضي 1/ 246).

ومن لطيف ما نهجه ابن القاضي في شرحه، رجوعه في كل معنى اعترضه في القصيدة إلى أهل الصناعة فيه، فإذا كان المعنى متعلقا بعلم الكلام رجع إلى المتكلمين، وإذا كان متعلقا بمعنى صوفي، رجع إلى العارفين السالكين من أعلام المتصوفة، فكان لا يعرج في قضية تناولها إلا على أهل الصناعة فيها، إذ لا معرج على ما يقوله في الشيء من لا يفهمه، على حد قول حازم القرطاجني –رحمه الله-. ثم يختم المعنى بما ورد في القرآن الكريم، وحديث سيد الأولين والآخرين محمد –صلى الله عليه وسلم- يقول الشارح: «ثم نطبع بالكتاب والسنة، ونختم بكلام الأئمة في معنى الآية بحسب الإشارة، ثم جاء بحمد الله على أحسن منوال، في صناعة لم يسبقني إليها أحد من الرجال، وقد سميته مجلي الآماق وإثمد الأحداق في شرح تائية الحراق» (ابن القاضي 1/ 246).

إن تضمين الشارح البعد الإشاري في شرحه، وتركيزه عليه أضفى على عمله صبغة صوفية صرفة، فعلى الرغم من اعتماده بعض ما اعتمده الشراح قبله من شرح الألفاظ من طريق اللغة وباعتبار الاصطلاح، فإنه كان كثير الأول لأهل التصوف، ما جعل سفره هذا شرحا إشاريا بامتياز.

ولعل الشارح في بعض المواطن من شرحه يلتمس الشفقة والإنصاف من أهل العلم فيما تأوله، لأنه- بحسب رأيه- أول من سلك هذا المسلك، وأول من عبّد دربه، والتصنيف في مثل هذا الغرض يجعل صاحبه تارة يصيب وأخرى يتنكب «فإن من صنف قد استهدف، ومن استهدف تارة يمنح وأخرى يتكلف، ولا سيما من فتح بابا لم تفتح قبله، وخاض بحرا وقفت الرياس حوله» (ابن القاضي 1/ 246).

2-3. آليات التأويل في المطلع

سنشتغل في هذا المطلب على مطلع التائية فقط، محاولين في ذلك بيان طريقة اشتغال الآليات التأويلية، من خلال البيتين الأولين، مع النظر في طريقة خروج الشارح إلى الموازيات لتحرير المعنى.

يقول الحراق رحمه الله:

أتطلبُ لَيلَى وهْيَ فيكَ تَجلَّتِ ... وتَحْسبُها غيرا وغيرُكَ لَيستِ

فَذا وَلَهٌ في مِلَّةِ الْحُبِّ ظاهِرٌ ... فكُنْ فَطِنًا فالغيرُ عينُ القَطِيعَةِ

بعد النظر في جهود الشارح للبيتين أعلاه، تبين لنا اعتماده الآليات التأويلية التالية:

1. الإعراب: على الرغم من أن الشيخ أشار على الشارح بإخلاء شرحه من الإعراب، إلا أنه لم يستطع ذلك فكان أول ما استهل به شرحه، بيانه لحقيقة حرف الاستفهام الهمزة في قول الشاعر (أتطلب ليلى)، مبينا وظيفتها النحوية في البيت، ومستدلا على تعليله بأمثلة مشابهة في القرآن الكريم. يقول في معناها: «الهمزة هنا، همزة الإنكار التوبيخي، وهي التي تقتضي أن ما بعدها واقع، وأن فاعله

ملوم، نحو ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: 95] ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: 40] ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات 86]، وما أشبه ذلك».

2. الخبر والشعر: وهما معا من أهم الروافد التي يعتمدها الشراح في شروحهم، حيث لم يجد الشارح بدا من الخروج من النص إلى المدونة الخبرية والشعرية، لتطعيم المعنى، فراح يحدثنا عن اسم ليلى الشائع الذيوع في ثقافتنا العربية، والمرتبط خاصة بالمجنون، وهو أحد العشاق المشاهير الذي قال فيها شعرا، وهكذا سيتخذ الشارح ما قاله أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة في قصة المجنون وليلى جسر عبور خرج به من دلالة ليلى عند العشاق المجانين إلى دلالته في اصطلاح الصوفيين، مع البون الشاسع بين المعنيين، وهو خروج من دلالته الأرضية الزائلة إلى دلالة سامقة باسقة.

3. ليلى في اصطلاح الصوفية:

مما تميز به هذا الشرح العبور من المعاني اللغوية إلى المعاني الاصطلاحية، كما يستعملها أهل التصوف، ومن نماذج ذلك قوله في ليلى: «وفي اصطلاح الصوفية يشيرون بها للحقيقة الجامعة للكمالات كلها، ولفظها من أنواع المجاز المستعمل في غير ما وضع له» (ابن القاضي 1/ 259).

ومن نماذج الانتقال من اللغة إلى الاصطلاح ما أورده في معنى (تجلت) في البيت الأول، حيث قال: «والتجلي في اللغة الظهور، وفي اصطلاح القوم، هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، وقيل التجلي رفع حجاب البشرية» (ابن القاضي 1/ 259).

4. اللغة: نمثل لها في شرحه لمعنى الوله في قول الشاعر: (فذا وَلَهٌ)، قال: «الوله التحير، من قولهم أله يوله، ويقال وله يوله ولها، فهو واله بكسر العين وفتحها في الماضي، ذهب عقله، ويقال: وله يوله ولها إذا اضطرب، وهي خفة تصيب الإنسان إذا اضطرب من سرور أو حزن، وفي معناه

أنشدوا:

وَلِهتْ نفسي الطروبُ إليكمْ ولَهًا حال دونَ طَعْمِ الطاعمِ»

(ابن القاضي 259/1)

لا يخفى إذن، أن الشارح بعد أن أورد بعض معاني "وله"، وحرر قوله في معناه، عزز ذلك ببيت من الشعر، يتشارك فيه البيان بيت التائية، والبيت المستشهد به المعنى، وعلى هذا النحو سار الشراح قبله، عندما يتعلق الأمر ببيان المشترك في دلالات الألفاظ، من جهة اللغة، أو استحضار المعنى من خلال التناص.

ومن ذلك أيضا صنيعه في بيان معنى الحب، في قول الحراق: (فَذا وَلَهٌ في مِلَّةِ الْحُبِّ ظاهرٌ)، فبعد أن توسع في إيراد معنى المحبة عند أهل الصوفية، مستحضرا في ذلك معناه في إحياء علوم الدين للشيخ أبي حامد الغزالي، وقول الشيخ جمال الدين القاشاني الصوفي والمفسر (730ه): «المحبة ميل الجميل إلى الجمال في بداية المشاهدة»، وكذا قول أبي عبد الله القرشي: «حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، ولا يبقى لك منك شيء»، والشيخِ أبي العباس زروق القائل: «المحبة أخذ جمال المحبوب بحبة القلب، حتى لا يمكنه الالتفات لغيره، ولا العمل بغير ما فيه رضاه، إيثارا له على ما سواه»، وقول شيخ الشارح الشريف الحسني مولاي عبد الواحد الدباغ: «المحبة نار لا تبقي ولا تذر» (ابن القاضي 1/ 260-261).

بعد جني هذه المَعاني من رياض أهل التصوف، أخص منهم المُعاني، سار الشارح مدققا في اشتقاقه من حيث اللغة، فعلى ما في معانيه من الاختلاف إلا أن ثمة جامعا يجمعها برباط القرب والتكامل، كما يظهر ذلك جليا في الرسالة القشيرية، يقول صاحبها: «أصله من حبب الأسنان، وهو

صفاؤها ونضارتها، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها، حبب الأسنان، وقيل الحبب ما يعلو من الماء عند المطر الشديد، فعلى هذه المحبة غليان القلب، وثورانه عند العطش الشديد، والاهتياج إلى لقاء المحبوب، ويقال اشتقاقه من اللزوم والثبات. يقال أحب البعير إذا استناخ ولم يبرح» (ابن القاضي 1/ 261).

5. تعدد الروايات: من الطريف في قراءة الشعر وتأويله اعتماد تعدد الروايات بما هو إثراء وإغناء للنص، حيث يتغير رسم اللفظ من غير أن يحدث في النص تعارض ولا تناقض، بل تنهض كل رواية بمعنى جديد يزيد المعنى سدادا، وهو أقرب ما يكون بتعدد القراءات في القرآن الكريم، مع حفظ خصوصية القرآن الكريم وقدسيته، إذ تعد كل قراءة آية، وكل آية لها معنى مخصوص، فتعدد الروايات إذن، إثراء وإشباع للمعاني ما لم ينهض من النص ما يتعارض مع الرواية الثانية أو الثالثة، أمثل لهذا بقوله: «وفي نسخة مقروءة على الناظم فذا بله بالباء الموحدة، بدل من الواو، ومعناه السهو والغفلة، والملة الدين والمذهب» (ابن القاضي 1/ 259).

فإشارة الشارح إلى ورود البله محل الوله، وعدم رده له، دليل على تسويغه، ومقبولية الجمع بين معنيي الوله والبله وهما: الحيرة والسهو. وهو ما يظهر من خلال قوله: «إن هذا الطلب لا يبدو منك أيها الطالب الجاهل، إلا وله وبله في ملة الحب الخاص، ومذهب أهل القرب» (ابن القاضي 1/ 263). فجمعه وإشراكه الوله والبله بالواو دليل على إمكان الجمع بين معنييهما من غير تعارض ولا تناقض.

بعد هذا الجهد التأويلي الماتح من الإعراب، واللغة، والأسناد الخارجية، والمدونة الخبرية، والموزايات الشعرية، والاغتراف من إشراقات أهل التصوف واصطلاحاتهم يخلص الشارح إلى تقرير المعنى وتحرير أصدافه في عقد صوفي ظاهر، اتباعا لمنهجه وطريقة شيوخه من أهل التصوف، قائلا: «يقول والله أعلم: أتطلب أيها الطالب الجاهل ليلى التي هي حقيقتك، والحال أنها فيك متجلية، وفي

نفسك ظاهرة ظهور المطلق في المقيد، لظهور المظروف في الظرف..وتحسبها من جهلك وعمى بصيرتك، أنها غيرك في الحقيقة ..وهي والله ليست غيرك في الحقيقة، إذ لا وجود لسواها حتى تكون أنت من ذلك السوى، إنما أثبتَ وجود السوى، وهمك القاصر عن إدراك الحقائق، وعقلك المعقول عن شهود الدقائق» (ابن القاضي 1/ 263).

يبدو من هذا التأويل أن ابن القاضي قد حقق مطلب شيخه عبد الواحد الدباغ، وسار على نهجه، فهو شيخه ومعلمه، والآخذ بيده، ومحفزه على إنشاء هذا الشرح الجامع.

خاتمة:

سعينا من خلال هذا البحث إلى بيان قيمة التائية باعتبارها من النفائس الشعرية في التصوف، وكذا التعريف بصاحبها وشارحها رحمهما الله جميعا، وفضلا عن ذلك كله سعينا إلى بيان الجهد الشارح التأويلي، من خلال كشف منهجه في القراءة، وتوسعه في الشرح والتأويل، بالنظر في شرحه لمطلع القصيدة، فحصرنا النظر في البيتين الأولين.

إن اختيار الشارح للصوفية طريقة، وللدباغ شيخا ومعلما، جعل تأليفه هذا مندرجا في التأويل الصوفي، إلا أنه ومع ذلك، لم يكن ليخلو من إشارات لغوية ولطائف أسلوبية ممتعة، تكشف عن امتلاك الشارح ذائقة أدبية وحسا نقديا، وقدرة على تتبع مفاصل النص، مكنته من آليات القراءة والتأويل، وجعلته يحتفي بجمال النص بلاغة ونحوا، وحتى إعرابا، وإن كشف في دواعي تأليف كتابه توجيه شيخه له بتنقية كتابه من الإعراب، إلا أنه لم يستطع ذلك، وكيف لكتاب شارح أن يخلو من الإعراب؟!

وعلى الجملة، يمكن إجمال أهم نتائج البحث في الآتي:

- اجتمع في الشيخ محمد الحراق ما تفرق في غيره في الشرق والغرب، فقد حاز علوم الشريعة وعلم

الأدب وعلم التصوف، وهذا ما جعل قصيدته الصوفية فريدة من نوعها.

- من حظ الشارح اشتغاله على قصيدة حازت شرفين: شرف الغرض، وجلال العروض، الأول معنوي وهو المنحى الصوفي، بما هو ارتقاء في السلوك، ونقاء في الطريق المسلوك، وشرف إيقاعي وزني، متمثل في اختيار بحر الطويل وزنا للتائية.
- يعد كتاب مجلي الآماق وإثمد الأحداق في شرح تائية الحراق" استجابة من المؤلف ابن القاضي لشيخه عبد الواحد الدباغ رحمهما الله جميعا، **فهو الذي أمره بشرح التائية المذكورة**، لأنها من أجل ما نظم ومن أعجب ما صنف في التحقيق، وفي بيان شور الطريق، فكان الكتاب استجابة واعية من تلميذ مريد لشيخ عارف، **امتثالا لأمر الشيخ**، إذ أمره بأمر الله ورسوله، وطاعته طاعة الله ورسوله.
- يختلف منهج الشارح عن المتقدمين تبعا لما أملته عليه طريقته الصوفية، إذ عادة ما يجعل اللغة جسر عبور لاصطلاح الصوفيين، فالبدء باللغة وسيلة، **والانتهاء إلى اصطلاح الصوفيين غاية يطوع بها النص في عمله التأويلي**.
- يبدأ الشارح بشرح اللفظة بحسب ما جاء في لغة العرب أولا، ثم بحسب ما جاء في اصطلاح أهل التصوف ثانيا، ثم يشير في بعض الأحيان إلى بعض قواعد البيان، وإلى بعض قواعد المنطق، ولا يتعرض للإعراب إلا لضرورة، **ثم يؤيد ذلك بما جاء في نظم الصوفية**، وبعد ذلك يقرر المعنى الذي احتوى عليه ذلك المحل، فلا تأييد لمعاني القصيدة إلا من قصائد من نفس جنسها.
- تعددت آليات التأويل في جهد ابن القاضي، ولعل من أبرزها، فيما اشتغلنا عليه، اعتماده اللغة والخبر والشعر واصطلاح القوم، أقصد الصوفية، واعتماده تعدد الروايات للبيت الواحد، والتماسه علم الإعراب أحيانا، كل هذه الآليات مكنت الشارح من التوسع في الإبانة، لبلوغ المقاصد والغايات في شرح الأبيات.

المراجع:

القرآن الكريم

1. ابن القاضي، محمد المهدي. بمجلي الآماق وإثمد الأحداق في شرح تائية الحراق، محمد، دراسة وتحقيق: حنان الفاضلي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المملكة المغربية ط1، 2012.
2. الإفراني، محمد. المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل، تحقيق وتقديم: محمد العمري، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1997.
3. الجراري، عباس. الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1982.
4. حركات، إبراهيم. المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد، الدار البيضاء، ط2، 1994.
5. داود، محمد. النور البراق في ترجمة محمد الحراق، المطبعة المهدية، تطوان 1968.
6. الدماميني. العيون الغامزة على خبايا الرامزة، تحقيق: الحساني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994.
7. السكاكي. مفتاح العلوم، كتبه وضبط هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ط2، 1987.
8. سليماني، مولاي علي. نحو قراءة تأويلية موسعة للخطاب، مناولات تطالبية تساندية، دار النابغة، مصر، 2021.
9. عيسى، عبد القادر. حقائق عن التصوف، دار العرفان، سوريا (د ت).
10. القيرواني، ابن رشيق. العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق وتعليق: محيي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء (د ت).
11. الكتاني، محمد بن جعفر. سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصالحين بفاس، طبعة حجرية، فاس1316هـ.
12. اليوسي، الحسن. رسائل أبي الحسن اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة: فاطمة خليل قبلي، دار الثقافة (دت).
13. اليوسي، الحسن. قانون العام في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تحقيق وشرح وتعليق: حميد حماني، ط 1988.